الشمولية الاجتماعية للانتفاضة

(قراءة أولية)

وحيد عبدالمجيد

كثيرة هي الاسباب التي تدعو الى ادراج الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، التي بدأت في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧، ضمن التجارب الثورية بالغة الثراء، التي ستترك، بالضرورة، تأثيرات هائلة في نظريات وخبرات المقاومة الوطنية، وخاصة المدنية منها. ومن هذه الاسباب، استمراريتها الزمنية غير المسبوقة تقريباً في مجال المقاومة الوطنية، عندما تقترن بشموليتها الجغرافية التي تغطي مختلف أنحاء الاراضي المحتلة، مدناً وقرى ومخيمات. ومنها، أيضاً، بناؤها التنظيمي الذي عجزت سلطة الاحتلال ـ بكل ما تمتلكه من قوة غاشمة واجهزة استخبارات وتجارب قمعية ـ عن اختراقه، او التوصل الى حلقة تقودها الى القيادة الوطنية الموحّدة للانتفاضة. وهناك، كذلك، قدراتها التكتيكية البارعة في مجال تحديد الاهداف، والوسائل المناسبة لها، وطرح الشعارات السياسية الاكثر تعبيراً عن المطلوب انجازه، بالتنسيق مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية؛ وهو التنسيق الذي يتمّ بشكل دقيق وسرّي للغاية، على الرغم من كل القيود التي تفرضها السلطة المحتلة.

والى جانب هذه الاسباب كلها، وغيرها، تبرز الشمولية الاجتماعية للانتفاضة الفلسطينية، باعتبارها احدى اهم السمات التي تميز هذه الانتفاضة وتكسبها ثراء ثورياً، سيجعلها مصدر الهام في مجال المقاومة المدنية. وتنبع الاهمية الخاصة لهذه الشمولية الاجتماعية من كونها اتاحت وصول العامل الذاتي في الانتفاضة الى ذروة فاعليته في اطار التفاعل مع الظروف الموضوعية التي هيأت الامكانية لتصعيد النضال الفلسطيني الى هذا المستوى، واستمرار الانتفاضة متدفقة لتمضي في عامها الثاني وهي أكثر قدرة على الصمود وأوفر حيوية. فليس متصوراً، في واقع الامر، ان يصل التجاوب بين جماهير الضفة والقطاع وبين قيادة الانتفاضة، باعتبارها ذراع منظمة التحرير في الداخل، الى هذا المستوى من غير مشاركة جميع الفئات الاجتماعية الفلسطينية. كما ان هذه المشاركة الشاملة هي التي تفسّر توزيع الاعباء والمغارم على أوسع نطاق، الامر الذي يحدّ من احتمالات الارهاق الذي ينتج عن استمرار الانتفاضة.

وعلى الرغم من قلّة المعلومات التي تسمح بالاحاطة الكاملة بظاهرة الشمولية الاجتماعية للانتفاضة، تسعى هذه الدراسة الى قراءة اولية للظاهرة، من خلال اطار منهجي يركّز على الامساك بالتغيّرات الاجتماعية التي شهدتها الاراضي المحتلة خلال سنوات الاحتلال، والتي أدّت، تدريجياً، الى الحدّ من نفوذ النخبة التقليدية من ارباب العائلات القديمة، او الوجهاء، لصالح نخبة جديدة مرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وذلك في سياق عملية اجتماعية هيأت الظروف الملائمة